عالمية الخطاب القرآني

الشيخ الدكتور ناصر بن سليمان العمر

بحث نشر في كتاب

"رسالة القرآن"

بمشاركة نخبة من الباحثين والكتاب

وتنسيق إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية بدولة قطر

الطبعة الأولى ربيع الأول 1431هـ - شباط (فبراير) 2010م

أعيد نشره إلكترونيا رمضان 1439 هـ / 2018م

عالمية الخطاب القرآني

الشيخ الدكتور ناصر بن سليمان العمر(*)

إن نفوس بني آدم متنوعة مختلفة، بل النفس الواحدة تكون لها أحوال مختلفة، وقد جاء الخطاب القرآني بما يوافق هذه النفوس والأحوال جميعاً ولم يأت على نسق واحد، فنجد فيه الترغيب ونجد الترهيب، نجد الوعد ونجد الوعيد، نجد خطاباً للعقل بالحجج والبراهين، ونجد خطاباً للقلب والمشاعر والأحاسيس، نجد الثواب ونجد العقاب، نجد المثل والقصة والحكمة.

- مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فقد بعث الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل، فجعله خاتم النبيين والمرسلين، وأنزل عليه القرآن الكريم مهيمناً على الكتاب قبله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط مستقيم؛ وخلال مدة وجيزة من عمر الأمم لا تتعدى مائة عام، صار هذا الكتاب منهاج أمة عظيمة يمتد أفرادها من الصين شرقاً إلى المغرب والأندلس غرباً، وطوال أربعة عشر قرناً ونيف من الزمان ظل هذا الكتاب العزيز مصدر هداية وإرشاد لملايين البشر الذين انتشروا في أرجاء العالم القديم، ثم في العصر الحديث امتد تأثيره ليشمل كل أرجاء المعمورة.

(*) داعية وباحث أكاديمي، المشرف العام على موقع المسلم (السعودية).

إن هذه الحقيقة التي لا يستطيع أحد ردها لوضوحها وثبوتها، آية عظيمة الدلالة على أن هذا الكتاب ليس كأي كتاب، وأن ما حواه من تعاليم ليست كأية تعاليم، وحق له ذلك، فكيف يكون لكتاب مهما علا شأنه، وبلغت حجة صاحبه وقوة عبارته وجزالة بيانه، أن يضاهي، بل يقارب كتاباً حوى كلام الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه لا من خلفه! ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:23- 24).

فإذا أضيف إلى ما سبق أن هذا الكتاب قد نزل في الجزيرة العربية، وهي يومئذ في ذيل الأمم حضارياً وثقافياً وعلمياً واقتصادياً وسياسياً، ثم حمله العلماء والدعاة إلى شتى بقاع الأرض فخضعت لسلطانه الروحي الآسر - في تلك المدة الوجيزة- أمم عريقة في الحضارة والتقدم بمقياس ذلك الزمان، أيقنا أن هذا الكتاب يحمل في طياته قيماً ومثلاً وتعاليم، تتجاوز حدود الإقليم الذي نزل فيه، وأن تعاليمه عالمية بمقاييس ذلك الزمان وزماننا هذا، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

إن الخطاب القرآني صالح لمخاطبة الناس وإقناعهم وإخضاعهم لسلطانه والتسليم لحجته في كل زمان ومكان، وتعاليمه كفيلة إن طبقت في أي مكان بإصلاحه في كل زمان.

وما الهزات الاقتصادية المعاصرة إلاّ علامة بهاتة تدل العامة على هذا المعنى في هذا الزمان.

وفي هذه الكلمات سوف أحاول، بإذن الله، تجلية شيء من جوانب عالمية الخطاب القرآني، وعمومه وشموله لكل زمان ومكان، على اختلاف انتماءات البشر العرقية والجنسية والثقافية والدينية، وسوف يدور البحث حول المحاور التالية:

أولاً: حاجة البشرية لخطاب عالمي.

ثانياً: أدلة عالمية الخطاب القرآني.

ثالثاً: سبب عالمية الخطاب القرآني.

رابعاً: ملامح عالمية الخطاب القرآني.

خامساً: شبهات حول عالمية الخطاب القرآني.

ولا يفوتني قبل الشروع إثبات الثناء على الإخوة في المكتب العلمي على ما بذلوه من جهد في جمع مادته وإعدادها، فجزاهم الله خيراً وكل من أسهم في هذا العمل.

أولاً: حاجة البشرية لخطاب عالمي

لقد صار العالم اليوم كالقرية الصغيرة أو كاد، بسبب التطور الهائل في وسائل الاتصالات وسرعة وسهولة تبادل المعلومات والمعارف؛ وهو ما أفرز نوعاً غير مسبوق من تسابق الزمن، حيث صارت البشرية تنتج في سنوات معدودة ما كانت تحتاج كي تنتجه فيما مضى لعشرات السنين بل القرون.

هذه الحال الجديدة بدت مناسبة لظهور دعوات وأفكار تخاطب المجتمع الإنساني كله، ولا تنحصر في حدود الإقليم، فظهرت الشيوعية والعلمانية والليبرالية وغيرها، بل ظهرت الدعوة للعولمة، والغرض منها أن تصطبغ كل الأمم والشعوب بصبغة واحدة تذوب معها كل الفروق الثقافية والحضارية وكل المميزات والخصوصيات التي بين الشعوب، ونحن هنا لسنا في معرض مناقشة هذه الدعوات وبيان ما فيها من مساوئ ومناقضة لشرع الله، فهذا يخرجنا عن المقصود، لكننا نبين بما سبق أن العالم في وضع يؤهله لتقبل دعوة عالمية تخاطب الجنس البشري عموماً.

إن المذاهب السابقة لا تصلح عند التحقيق لتلبية طموحات البشر وتحقيق سعادتهم، ففي ظل عالمٍ سريعِ التغير والتحول يموج بكثير من القيم والأفكار والمبادئ المتصارعة والمتدافعة كالتي سبق ذكرها، وفي ظل أمواج متلاطمة من الفتن والمحن والمشكلات التي تعصف بأفراد الأسرة الإنسانية جميعاً على كافة الصعد؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والقِيَمية وغيرها، تبرز الحاجة الماسة إلى مصباح ينير الدرب للحيارى والتائهين في زحمة الأحداث، وإلى منهاج يعتصم به الناس ليخرجهم من ظلمات الحيرة والشك والاضطراب والصراعات التي تحرق الأخضر واليابس إلى نور الطمأنينة واليقين، وإلى بر الأمان الذي تستقر فيه حياتهم وتنتظم معايشهم.

إن هذا المنهاج لا يمكن أن يكون من وضع البشر، لأن ما آلت إليه حالهم من اضطراب ليس إلا انعكاساً لما أفرزته عقولهم من أفكار ورؤى

متصارعة، سعى كل فريق منهم بما أوتي من قوة لبسط ما يراه منها وتحكيمه، وفقاً لما يخدم أهواء بني جنس أو وطن ويعزز مصالح فئة أو بلد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ (الأنعام: 159)، أما المنهج الرباني فالناس فيه سواسية مهما تشعبت بهم الأهواء تحت عدالة قدسية الأحكام والميزان، ثم إن المنهاج الرباني أنزله خالق هؤلاء البشر العالِمُ بما يُصلِحهم وما يفسدهم، وما يَصلُح لهم وما لا يصلح، فإن من أوجد شيئاً وصنعه وركبه - وللّه المثل الأعلى- أدرى بما يناسبه وما لا يناسبه.

ومن خصائص منهج اللّه المنزل من لدن حكيم عليم مقسط عدل أنه منهج عالمي في طرحه لا يراعي أحوال أمة من الأمم دون غيرها، ولا منطقة جغرافية لها خصوصياتها دون غيرها إلاّ لمعنى يناسبها تميزت به عن غيرها، وكل ذلك مقتضى العدالة التامة والحكمة البالغة.

إن هذا الجمع بين إلهية المنهج وعالميته، لا يتحقق إلا في رسالة واحدة وصلت أهل الأرض بالسماء، هي رسالة الإسلام الخالدة التي امتن اللّه بها على عباده يوم بعث نبيه محمداً ﷺ هادياً ومبشراً ونذيراً للإنس والجن كلهم، من مبعثه إلى يوم الدين: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (التكوير:27)، وأما الرسالات الإلهية السابقة فلم يبق منها على وجه الأرض اليوم سوى اليهودية والنصرانية وبقايا أدعياء، واليهودية والنصرانية كلتاهما كانت لبني إسرائيل دون غيرهم من الأمم؛ أما اليهود فهم مقرون بذلك ولا يسعون لنشر دينهم بين غيرهم، وأما النصارى فقد نشروا دينهم بين الأمم مخالفين بذلك تعاليم ما بين أيديهم من أناجيل تؤكد أن النصرانية خاصة ببني

إسرائيل فحسب مثل اليهودية، فإنهم ينسبون للمسيح، عليه السلام، قوله: «لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ»(1)، وجاء في إنجيل متى أيضاً: «هؤُلاَءِ الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلاً: إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ»(2)، وقد دخل هاتين الديانتين من التحريف والتبديل ما الله به عليم، وهما منسوختان بدين الإسلام: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (آل عمران:85).

إن من تأمل في الظروف والملابسات التي كانت موجودة في العالم بأسره قبيل بعثة النبي ﷺ وجدها متقاربة مع حال كثير من أنحاء العالم المضطرب اليوم، فعن عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ...**»(3).

وما أشبه الليلة بالبارحة، فقد انتشر الكفر والظلم والبغي في أرجاء الأرض، وعم الفساد وطم، ولولا بقايا من أهل الإسلام المتمسكين بدينهم

(1) إنجيل متى، الإصحاح الخامس عشر، 24.

(2) إنجيل متى، الإصحاح العاشر.

(3) صحيح مسلم، 2197/4 (2865)، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

القابضين على الجمر لأظلم وجه الأرض بما اقترفته أيدي بني آدم. ولئن كانت الحال قبيل البعثة قد استدعت إرسال النبي ﷺ وإنزال القرآن الكريم، فإن الحال اليوم تستدعي نشر هذا الكتاب العزيز وحمله للعالمين لينهلوا من مورده العذب ويستظلوا بظله الوارف.. فإن العالم اليوم يعيش كوارث ولا كاشف لها إلاّ منهج القرآن.

ثانياً: أدلة عالمية الخطاب القرآني

هذه الأدلة تنقسم إلى قسمين؛ شرعية وكونية.

أما الكونية فتتمثل في انتشار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ودخول الناس في دين الله أفواجاً استجابة لدعوة القرآن الكريم، فاستجابة الناس على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ولغاتهم وطبائعهم لهذا الكتاب العزيز دليل أكيد على أن خطابه لقي قبولاً عند كل هؤلاء وهذا دليل أكيد على عالميته، وقد أقر بهذه العالمية كثير من مفكري الغرب والمستشرقين، يقول «مارسيل بوازار»(1) في كتاب «إنسانية الإسلام»: «إن القرآن لم يقدّر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة»(2)، ويقول «جاك. س. ريسلر»(3) في كتاب «الحضارة العربية»: «إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى على الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة... وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس، إلخ»(4).

---

(1) مفكر، وقانوني فرنسي معاصر.
(2) عماد الدين خليل، قالوا عن الإسلام، 7/1.
(3) باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي في باريس.
(4) عماد الدين خليل، قالوا عن الإسلام، 21/1.

وقد وَسِع منهاج القرآن عبر قرون أمماً في أقصى المشرق وأمماً في أقصى المغرب، تختلف ألوانهم وألسنتهم وأعراقهم وأجناسهم وخلفياتهم الثقافية، ومع ذلك بقيت حضارتهم تزدهر قروناً، قرناً بعد قرن، وظلت أحكام الشريعة تستوعب المستجدات، وتتفاعل مع التطورات، لا ترد مسألة أو تستجد نازلة وليس لها حكم في كتاب الله عند العالمين به أبداً، وما وانتكست أمم الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها إلاّ بعد أن ابتعدت عن منهاج ربها، وصراطه المستقيم.

وكذلك وَسِع منهاج القرآن من قضي عليه بأن يعيش في دولة الإسلام أو في أرض العهد أو دار الحَرب، وَسِع الأسير والطليق والصحيح والمريض والغني والفقير، بل وَسِع الثقلين في مختلف أحوالهم وعلى اختلاف حالاتهم.

وأما الأدلة الشرعية على العالمية فمن الكتاب والسنة والإجماع:

أ- أدلة الكتاب:

وهي كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:158)، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:1)، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ:28)، ودلالة هذه الآيات وما شابهها على المراد ظاهرة، قال ابن كثير في تفسير الآية الأخيرة: «أي: إلا إلى جميع الخلق من المكلفين»[1].

(1) تفسير ابن كثير، 518/6.

ومنها قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (الأحزاب:40) الآية، ووجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى قد وعد أن يرسل لبني آدم من يهديهم إليه، وألا يتركهم هملاً، فيلزم من ختم النبوة مع انتشار الناس في الأرض واستمرار الحياة عليها أزمنة عديدة إلى ما شاء الله، أن يكون آخر نبي نبياً لهم جميعاً.

ومن الأدلة الظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:107)، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (القلم:52)، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (ص:87).

ب- أدلة السنة:

ورد عن النبي ﷺ العديد من الأحاديث الدالة على هذه الحقيقة، فمنها قوله، عليه الصلاة والسلام، في الحديث الذي رواه أبو هريرة، رضي الله عنه: «**فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ، أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»(1)، ومنها قوله، عليه الصلاة والسلام، في حديث جابر، رضي الله عنه: «**كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ**»(2)، قال النووي، رحمه الله، في الشرح: «قيل: المراد بالأحمر البيض من العجم وغيرهم، وبالأسود العرب - لغلبة السمرة فيهم- وغيرهم من السودان؛ وقيل: المراد بالأسود السودان، وبالأحمر من عداهم من العرب وغيرهم،

(1) صحيح مسلم، 371/1 (523)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(2) صحيح مسلم، 370/1 (521)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

وقيل: الأحمر الإنس، والأسود الجن؛ والجميع صحيح فقد بعث إلى جميعهم»[1].

ج- أدلة الإجماع:

أما أدلة الإجماع، فقد قال ابن حزم، رحمه الله، في مراتب الإجماع: «باب من الإجماع في الاعتقادات يكفر من خالفه بإجماع»، فذكر منها: «وأن محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي المبعوث بمكة المهاجر الى المدينة رسول الله ﷺ إلى جميع الجن والإنس إلى يوم القيامة»[2]، فهذا من المعلوم من الدين بالضرورة، بحيث يكفر من ينكره وإن أقر بنبوته، عليه السلام، وبكل أحكام دينه، قال ابن كثير، رحمه الله: «والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى الناس كلهم»[3].

---

(1) شرح النووي على مسلم، 5/5.

(2) ابن حزم، مراتب الإجماع، 127/1.

(3) تفسير ابن كثير، 489/3.

ثالثاً: سبب عالمية الخطاب القرآني

من المعلوم أن الله عز وجل وعد بني آدم منذ أخرج أبويهم من الجنة وأهبطهما الأرض ألا يتركهم يخبطون فيها خبط عشواء، بل يرسل لهم هداة معلمين مبشرين ومنذرين، يدلونهم على طريق الله الموصلة إلى رضوانه، والتي في سلوكها أوبة حميدة إلى ديارهم الأولى، التي أخرج منها الأبوان بمكرٍ من الشيطان وضعف منهما، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:38)، وأيضاً: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (طه:123).

ومصداقاً لهذا الوعد كان الله عز وجل يرسل للناس رسلاً وأنبياء يصلون أهل الأرض بالسماء؛ وحيث إن بني آدم قد كثروا وانتشروا في بقاع الأرض المختلفة، وتباعدت منازلهم وتنوعت بيئاتهم واختلفت ألسنتهم، فقد كان يرسل لكل قوم رسولاً منهم يتكلم بلسانهم ويعالج انحرافاتهم بخاصة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (إبراهيم:4)، وقد كانت مهمة كل نبي في البلاغ منحصرة في القوم أو الأقوام الذين يرسله الله عز وجل إليهم دون غيرهم، لذا لم تكن هناك حاجة لعالمية في الخطاب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾(الأعراف:59)، وقال: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾(الأعراف:65)، وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾

(الأعراف:73)، وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف:85).

فلما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يرسل رسولاً خاتماً لكل الخلق كان من لوازم ذلك أن يكون الخطاب خطاباً عالمياً غير محلي بحيث يلقى قبولاً وتفهماً من كل أمم الأرض؛ وهنا قد يثور سؤال هو: ما الداعي لختم الرسالات برسالة واحدة إلى كل الأمم - خلافاً لما جرت عليه سنة الله عز وجل- ومن ثم تحول الخطاب من المحلية والإقليمية إلى العالمية؟

إن الجواب الرئيس الذي ينبغي أن يستصحبه المسلم معه لهذا السؤال وغيره من الأسئلة المشابهة، أن الله سبحانه وتعالى فعال لما يريد، وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فأفعال الله سبحانه وتعالى لا يُسأل عنها بـ«لم»، و«كيف»، بل يسلم له سبحانه وتعالى ويسلم لحكمته، فهو عز وجل حكيم لا يصدر عنه فعل إلا لحكمة، علمها من علمها وجهلها من جهلها؛ أما بعد التسليم لهذه القاعدة فلا بأس من تلمس وجوه الحكمة، فإن معرفة الحكمة تزيد اليقين وتحفظ قلوب كثير من الناس من الفتن، ويرد بها على كثير من الشبهات.

وقد ذكر أهل العلم بعضاً من الوجوه المحتملة للحكمة من ذلك، منها أن الأمم السابقة كانت تعيش فيما يشبه العزلة عن بعضها، وأن التواصل بين الأمم والحضارات كان يتم ببطء شديد، ولما كان عصر البعثة يشهد نوعاً من الاستقطاب بين قوتين عالميتين فقط هما الفرس والروم، وكان التواصل بين الأمم - نتيجة ذلك- يسير بصورة أسرع مما مضى، كان من المناسب أن تعم البشرية رسالة واحدة؛ ومنها أن هذا التواصل المتسارع بين أعضاء الأسرة

البشرية كان يؤدي إلى شيء من التشابه في المشكلات والآفات التي تعاني منها البشرية، بخلاف ما كان سائداً فيما سبق، حيث تبين آيات الكتاب العزيز أن كل أمة من أمم المرسلين كان لديها من الانحرافات والآفات ما تتميز به عن غيرها، وإن اجتمعت مع الآخرين في غيرها، وهو ما كان يستلزم أن يأتي كل نبي بعلاج آفات قومه الخاصة؛ إن هذه النقطة بالذات تظهر أكثر ما يكون في عصرنا الحاضر، حيث كان لثورة المعلومات والاتصالات أثرها الكبير في هذا الأمر، وهو ما لم يكن قائماً فيما مضى.

ولعل من ألطف وجوه الحكمة المحتملة أن الله سبحانه وتعالى اصطفى محمداً ﷺ على ولد آدم أجمعين، وآتاه خير كتبه وأحسن شرائعه، فكان من المناسب ألا يكون في زمانه أو بعده شريعة لا تصل في الحسن لما امتازت وخصت به شريعته، وكان من عدل الله عز وجل ورحمته بالخلق أن جعل هذا النبي وهذا الكتاب وهذه الشريعة عامة لهم جميعاً منذ بعثته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:107).

ومنها كذلك أن الأقوام السابقة كانت تناسبهم دعوات خاصة تتعلق بظروف شتى وأحوال متنوعة كانوا يتقلبون فيها، أما هذه الشريعة فجاءت مناسبة كذلك لسائر الخلق في آخر الزمان، كما كانت تلك مناسبة للأمم في حينها، وشرح هذا أو الاعتراض عليه لا يتأتى إلاّ بمعرفة حقيقة ما كان وما سيكون على الوجه الذي يفهمه من عايشه، فلا سبيل لنقضه، وأما إثباته فبعموم النصوص التي تثبت الحكمة والعدل.

رابعاً: ملامح عالمية الخطاب القرآني

المتدبر لآيات الكتاب العزيز يستطيع أن يتلمس كثيراً من ملامح هذه العالمية، فمنها:

1- أن الله عز وجل كان يعطي كل نبي من المعجزات ما يناسب قومه؛ وقد كانت كل معجزات الأنبياء السابقة حسية مادية، فلما كان السحر قد انتشر في زمن موسى، عليه السلام، أيده الله سبحانه وتعالى بالعصا وبما يبطل سحر السحرة؛ ولما كان قوم عيسى، عليه السلام، قد برعوا في الطب كانت معجزته أن يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله؛ وأما نبينا محمد ﷺ فقد كانت له معجزات حسية كانشقاق القمر وحنين الجذع وغيرها، لكن معجزته الكبرى هي هذا الكتاب العزيز، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(1).

ولئن كان العرب أهل فصاحة وبلاغة فجاءت فصاحة القرآن وبلاغته معجزة لهم أن يأتوا بمثله بل بعشر سور بل بسورة من مثله، فإن معجزته لم تتوقف عند ذلك ولا توقفت عند حد إعجاز العرب، بل امتدت لإعجاز الإنس على اختلاف أجناسهم وتنوع ألسنتهم، وكذلك إعجاز الجن معهم على أن يأتوا بمثله مما يدل على عالمية خطابه، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:88)؛ وجماع القول في إعجاز القرآن الكريم: إنه كلام الخالق

(1) صحيح البخاري، 1905/4 (4696)؛ صحيح مسلم، 134/1 (152).

عـز وجل، فلا يمكن أن يشـبهه كـلام أي مخـلوق، ولا يمكن لأي من الخلق أن يعارضه أو يأتي بمثله.

2- أن أول آيات نـزلت على رسول الله ﷺ تحدثت عن الإنسان مطلقاً، قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ (العلق:1- 7)، فذكـر امتنـانه على جنس الإنسـان بالخلق والتعليم ثم ما كان منه من طغيان في مقابل الإنعام، وكأن في هذا إشارة مبكرة لعالمية الخطاب، والله أعلم.

3- أن آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن جنس الإنسان وعن عموم الناس، آيات كثيرة جداً تقترب بمجموعها من ثلاثمائة آية، بينما لا نجد لفظ العرب كقوم يأتي ولا مرة واحدة رغم أنه نـزل بلغتهم، وهذا مؤشر شديد الوضوح على عالمية الخطاب وخروجه عن حدود المحلية والإقليمية.

4- أن الله عز وجل خاطب البشر عموماً في كثير من الآيات، بغض النظر عن جنسهم ولونهم وأصلهم بل بغض النظر عن دينهم، سواء كانوا مسلمين موحدين أم كفاراً من أهل الكتاب وغيرهم، وذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ حيث وردت هذه اللفظة في عشرين آية[1] بخطاب مباشر من الله عز وجل أو مسبوقة بلفظ ﴿قُلۡ﴾.

(1) جاء لفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في آية أخرى ولكن على لسان سليمان، عليه السلام.

5- أن القرآن الكريم في خطابه لعموم الناس لم يفرق بين الأمم والشعوب والأجناس، ولم يصنفها تصنيفاً عنصرياً وإنما جعل التقوى والالتزام بالمنهج الرباني هو معيار التفاضل بين البشر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات:13)، وهو ما أكده النبي ﷺ حيث خطب الناس في أكبر جمع للمسلمين في أيام التشريق، فقال: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى. أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله**»(1)، فهذا العدل وهذه المساواة المقيدة ملمح مهم من ملامح عالمية خطاب القرآن.

6- أن الله سبحانه وتعالى دعا في كثير من الآيات إلى إعمال العقل والفكر والنظر في آيات الكون المنشور وآيات الكتاب المسطور، مما يتوافق مع ما سبق بيانه من وصول البشرية لمرحلة النضج العقلي، وهذه الأدوات، التي دعا القرآن الكريم لإعمالها مشتركة بين كل البشر، لا تختص بأمة أو شعب أو عرق أو لون، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ (البقرة: 164).

(1) مسند أحمد، 474/38 (23489)، قال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

7- أن الله عز وجل دعا في القرآن الكريم للاعتبار بما حل بالأمم السابقة، ولئن كان الأنبياء السابقون قد دعوا قومهم لذلك أيضاً، فإنهم إنما دعوهم للاعتبار بحال من جاورهم من الأمم التي يعرفونها وخلفوها، فهود، عليه السلام، قال لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (الأعراف:69)، وصالح، عليه السلام، قال لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ (الأعراف:74).

أما دعوة القرآن الكريم فكانت لكل الناس للسير في الأرض والضرب فيها والاعتبار بحال كل الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:137- 138).

8- من هذه الملامح الدور الذي ناطه القرآن الكريم بالأمة الإسلامية، فهي لا تقف بعيدة عن المشهد العالمي متفرجة عليه، لكنها أمة رائدة فاعلة ومتفاعلة، ويوضح هذا المعنى آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(النور:55)، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:143)، وقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف:108).

9- أن البشر حيال قضية الإيمان بالله ينقسمون إلى أصناف؛ فمنهم المنكر لوجود الصانع، ومنهم المؤمن بوجوده المنكر نبوة محمد ﷺ، ومنهم المؤمن بوجوده المشرك معه في العبادة غيره، ومنهم أهل الكتاب المتبعون لما حرف من كتبه، ومنهم المؤمنون الموحدون، وقد تنوع خطاب القرآن الكريم ليشمل هذه الأصناف جميعاً.

فخاطب منكري الصانع في أكثر من آية مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ (الطور:35).

وخاطب منكري نبوة محمد ﷺ في غير آية مثل قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس:16).

وخاطب المشركين في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: 22).

وخاطب أهل الكتاب في كثير من الآيات مثل قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(آل عمران:71).

وخاطب أهل الإيمان في آيات كثيرة جداً مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران:102- 103).

10- أن نفوس بني آدم متنوعة مختلفة، بل النفس الواحدة تكون لها أحوال مختلفة، وقد جاء الخطاب القرآني بما يوافق هذه النفوس والأحوال جميعاً ولم يأت على نسق واحد، فنجد فيه الترغيب ونجد الترهيب، نجد الوعد ونجد الوعيد، نجد خطاباً للعقل بالحجج والبراهين، ونجد خطاباً للقلب والمشاعر والأحاسيس، نجد الثواب ونجد العقاب، نجد المثل والقصة والحكمة، نجد الكلام عن عالم الغيب وعالم الشهادة، نجد دعوة للزهد في الدنيا إلى جانب الدعوة للأخذ بأسباب القوة فيها؛ وبناء عليه فإن نفوس بني آدم جميعاً إذا سلمت من الهوى تجد الأنس والراحة والسرور في هذا الخطاب الذي لا يشبهه خطاب.

11- أن القرآن الكريم تناول كل ما يحتاج إليه البشر من أمور دنياهم وأخراهم، وذلك ببيان ما ينفعهم في جوانب الاعتقاد والتشريع والأخلاق؛ فقد أجاب الإنسانَ عن كثير من الأسئلة التي تؤرقه مما يتعلق بأصل وجوده، ومن أوجده، ولِمَ أوجده، وماذا يريد منه، وما مآله بعد الموت؟ وبين له ما ينبغي عليه أن يعتقده في أبواب الإيمان المختلفة، وما ينبغي أن يقوم به من عبادات وفرائض قياماً بحق العبودية لله عز وجل على الوجه اللائق؛ كما اشتملت آياته الكريمة على تشريعات كاملة في جوانب السياسة والاقتصاد والاجتماع، وبينت أصول الأخلاق الفاضلة والكاملة وكثيراً من تفصيلاتها، فكان القرآن الكريم بشموله لكل هذه الجوانب منهج حياة متكامل.

12- ومن ملامح عالمية الخطاب القرآني أنه صالح لكل زمان ومكان، فإن تشريعاته وتعاليمه الحكيمة كانت تلقى القبول في مشارق

الأرض ومغاربها منذ العصر الأول إلى يومنا هذا إلى ما شاء الله، وما زلنا كل يوم نسمع عن دخول مزيد من الناس، من مختلف الأجناس ومن مختلف الطبقات والمستويات العلمية والاجتماعية في دين الله سبحانه وتعالى، تأثراً واقتناعاً بما جاء في القرآن الكريم كلام الرب عز وجل، ولو لم يكن يلبي حاجات وتطلعات الشعوب والأمم المختلفة لما وجدت له هذه المكانة ولما تحقق له هذا الانتشار على أرض الواقع.

خامساً: شبهات حول عالمية الخطاب القرآني

منذ اليوم الأول من دعوة النبي ﷺ قومَه وُوجه القرآن الكريم بالعديد من الشبهات التي تهدف للصد عنه وعن سبيل الله؛ فقيل: إنه من عند النبي ﷺ، وقيل إنه يعلمه بشر، وقيل إن الجن يوحون به إليه، إلى غير ذلك، وقد كان من بين الشبهات التي أثيرت من زمن بعيد في وجه القرآن الكريم ودعوة الإسلام شبهة تنفي عالميته وشموله للجنس البشري بزعم أنه خاص بالعرب، وهذا قول طائفة من اليهود، قال النيسابوري في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾: «فيه دليل على أن محمداً صلى الله عليه وآله مبعوث إلى الخلق كافة، خلافاً لطائفة من اليهود يقال لهم العيسوية أتباع عيسى الأصفهاني، زعموا أن محمداً ﷺ رسول صادق، لكنه مبعوث إلى العرب خاصة»[1].

وفي عصرنا الحاضر يثار في وجه عالمية الخطاب القرآني نوعان من الاعتراضات: الأول ينفي هذه العالمية ابتداء، والثاني يقر بها ولكنه يحرفها عن معناها الصحيح. وسوف نتناول فيما يلي هذين النوعين بالنقد والتحليل:

أ- نفي عالمية الخطاب القرآني:

كما سبق فإن هذه الدعوى قديمة، حيث قال بها بعض اليهود زاعمين أن النبي ﷺ لم يبعث للناس كافة وإنما للعرب خاصة، ولربما قالوا: إن بني إسرائيل بعينهم ليسوا داخلين في دعوته، والثابت عنه، عليه الصلاة

(1) تفسير النيسابوري، 14/4.

والسلام، خلاف ذلك... وقد رد الرازي، رحمه الله، هذه الدعوى بقوله: «إن كان رسولاً حقاً امتنع الكذب عليه، ووجب الجزم بكونه صادقاً في كل ما يدعيه؛ فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية - أي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾- أنه كان يدعي كونه مبعوثاً إلى جميع الخلق، وجب كونه صادقاً في هذا القول، وذلك يبطل قول من يقول: إنه كان مبعوثاً إلى العرب فقط»[1].

وفي العصر الحاضر هناك من ينفون عالمية الخطاب القرآني كذلك، سواء أقروا بنبوة محمد ﷺ أو لا، ومن أعظم حججهم ما يلي:

1- أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية ولم تكن زمن نزوله لغة عالمية، لأن العرب لم يكن لهم وزن يذكر في العالم، ولم تكن لهم مدنية أو حضارة تساعد على انتشار لغتهم، وأن الحال اليوم كحال الأمس، ويؤكد هذا المعنى أن القرآن الكريم لا تترجم ألفاظه إلى بقية اللغات بخلاف الإنجيل مثلاً.

الجواب: إن للغة العرب من الميزات والخصائص التي تفوق بها غيرها من اللغات ما هو معلوم للباحثين والدارسين، من حيث غزارة المفردات، واتساع اللغة، وإيجازها في التعبير عن المقصود، وكثرة المترادفات التي تراعي الفروق الدقيقة في المعاني، إلى غير ذلك؛ وهي في الفصاحة والبلاغة تتربع على عرش اللغات جميعاً، وهذا ما يؤهلها كي تكون لغة عالمية إن لم نقل اللغة العالمية الأولى.

---

(1) الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، 270/7.

وأما عدم ترجمة ألفاظ القرآن الكريم بمعنى وضع مرادف لمعناه بلغة أخرى لا نقل معانيه - بمعنى تفسيره- فهذا أمر يؤكد عالمية خطابه لا العكس، لأن باقي اللغات لا تستطيع أن تعطي معاني مفرداته على وجه الدقة، واللفظ الواحد من أي لغة قد يعطي معنى واحداً من المعاني الكثيرة المحتملة للفظ القرآني، فتضيع كثير من الفوائد إن جعل هذا اللفظ بدل لفظ القرآن، مما يؤكد على تفوق اللغة العربية من جهة، وعلى ضرورة عدم ترجمة ألفاظ القرآن الكريم من جهة أخرى.

يقول «جب»(1) في كتابه «الاتجاهات الحديثة في الإسلام» عند تعرضه لمنع ترجمة ألفاظ القرآن الكريم: «إن هذا الموقف يستند على محاكمة شرعية متماسكة تصوغ حججها إلى حد ما بشكل عقلاني مستندة في ذلك على اعتبارات بعيدة عن هذا الشكل العقلاني. والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسي كما هي الحال بالنسبة للشعر الرفيع. إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يعبر عن صوره وأمثاله، لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلاً قبل أن ينبثق المعنى للقارئ. والقرآن كذلك له حلاوة وطلاوة ونظم بديع مرتب لا يمكن تحديده لأنها تعد بسحرها أفكار الشخص الذي يصغي إلى القرآن لتلقي تعاليمه. ولا شك أن تأويل كلمات القرآن إلى لغة أخرى لا يمكن إلا أن يشوهها ويحول الذهب النقي إلى فخار»(2).

---

(1) سير هاملتون الكساندر روسكين جب (1895 – 1967)، يعد إمام المستشرقين الإنكليز المعاصرين، أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن سنة 1930م.

(2) قالوا عن الإسلام، 35/1.

ومن جهة أخرى فمعلوم من تاريخ الإسلام أن اللغة العربية صارت اللغة الأولى لكثير من الأمم والشعوب التي لم تكن تتكلمها، وقد اعتنى المسلمون من العرب وغيرهم بهذه اللغة أيما اعتناء حتى إن كثيراً من أساطين اللغة كانوا من غير العرب كما هو معلوم، وهذا مما يدل على عالميتها ويبطل هذه الحجة، يقول «سارتون»[1] في كتابه «الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط»: «(إن) لغة القرآن على اعتبار أنها اللغة التي اختارها الله جل وعلا للوحي كانت، بهذا التحديد، كاملة... وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد... (وجعل منها) وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة»[2].

وأخيراً، فإن الاعتراض باللغة المحلية على عالمية الرسالة اعتراض غير صحيح، فمن أين ومن ذا الذي شرط في الخطاب حتى يكون عالمياً أن يجيء بسائر اللغات؟!

وإذا كان التوراة والإنجيل أنزلت لبني إسرائيل بالسريانية وقد انقرضت تلك اللغة فهل من جاء بعد من بني إسرائيل غير مخاطبين بأحكامهما لأن لسانهم قد تغير؟

وهل مقررات الأمم المتحدة في نصوصها الملزمة المحكمة عند التنازع - وهي في الغالب الصادرة بالإنجليزية والفرنسية دون المترجمة لأغلب اللغات

(1) جورج سارتون (1884-1956م)، دكتور بلجيكي في العلوم الطبيعية والرياضية (1911م)، درس العربية وألقى في بيروت محاضرات ممتعة لتبيان فضل العرب على التفكير الإنساني، زار عددًا من البلدان العربية.

(2) قالوا عن الإسلام، 22/1.

الأخرى- لا سلطان لها على بقية دول العالم بحجة اختلاف اللسان؟ أم هي مقررات عالمية وإن صدرت باللغة الإنجليزية أو الفرنسية!

2- أن القرآن الكريم يركز في ذكر نعيم الجنة على ما يعد موضع اهتمام العرب دون غيرهم من الأمم، فالكلام عن الأنهار والزرع والنخيل والأعناب والغرف المبنية واللحم والفواكه مناسب لبيئة الصحراء القاحلة التي تفتقر للمياه والزروع والخيرات، والتي تمثل الأعناب والنخيل فيها ثماراً معروفة مألوفة لهم، وكذلك الحديث عن الحور العين وهي تمثل بالنسبة للعرب قمة الجمال بالنسبة للنساء، بينما هذه الأمور قد لا تكون موضع اهتمام غيرهم من الأمم التي تعيش في بيئات غنية بالمياه والزروع وحيث يختلف معيار الجمال عما هو موجود عند العرب.

الجواب: لا شك أن أي خطاب عالمي لا بد أن يراعي البيئة الأولى التي يلقى فيها كي يجد بيئة حاضنة تساعده على البقاء والانتشار، فعلى التسليم بما ذكر في الشبهة فإن هذا وحده لا يكفي كي ينزع عن الخطاب القرآني صفة العالمية، فكيف إن كنا لا نسلم بما فيها!

إن ما جاء ذكره من نعيم أهل الجنة له قيمة عالية عند العرب، لا شك في ذلك، إلا أن له قيمة كبيرة عند غيرهم أيضاً، فإن الاستمتاع بالماء والخضرة والوجه الحسن مما تتفق عليه طباع البشر السوية في أرجاء المعمورة وليس أمراً خاصاً بالعرب.

ومن جهة أخرى فإن نعيم الجنة الحسي كما بينه القرآن الكريم لم يقتصر على ما ذكر، بل هذه أمثلة لنعيمها، ففيها من أنواع الزينة الفاخرة كالسندس والحرير والإستبرق واللؤلؤ والذهب والفضة وغير ذلك، ما يخلب لب أكثر أهل الأرض نعيماً على اختلاف أجناسهم.

ومن جهة ثالثة فإن نعيم الجنة لم يقتصر على هذه الأمور الحسية، بل إن فيها من النعيم المعنوي أضعاف ذلك، من اجتماع الأهل والأحبة من المؤمنين، وتنزه الأسماع عن اللغو والكذب، والأبصار عن كل قبيح، وفيها ما أهو أعظم من كل ذلك؛ الأنس بالقرب من الله عز وجل ونيل رضوانه وكرامته.

وبعد كل ما سبق، فإن القرآن الكريم قد بيَّن أن المؤمنين الذين يكرمهم الله عز وجل بدخول الجنة يكونون في نعيم مقيم وأن كل واحد منهم يجد فيها ما يشاء ويشتهي، قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ (الزخرف:71)، وقال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ق:35).

3- أن الله سبحانه وتعالى ذكر في أكثر من آية أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:2) وأنه تحدى العرب أن يأتوا بمثله في الفصاحة والبلاغة، فمثل هذا التحدي لا يتوجه لغير العرب مما يدل على محلية الخطاب القرآني وعدم عالميته.

الجواب: إن هذه الشبهة رغم أنها أرأس شبهاتهم إلا أنها شبهة باردة وحجة سخيفة، فمن المعلوم أن أي دعوة عالمية إنما تنشأ في بيئة محددة ثم تنطلق منها إلى باقي البقاع والأماكن، وكل التيارات العالمية اليوم مرت بمثل ذلك، ومن المنطقي والحال كذلك أن تخاطب الدعوة الوليدة البيئة الأولى بلغتها وإلا ماتت الدعوة في أرضها لعدم تقبلها من البيئة الحاضنة، وهذا أمر بدهي، ولهذا الكلام دليل شرعي كذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ (فصلت:44)، قال

ابن كثير: «أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمي وعربي؟ أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطَب عربي لا يفهمه، هكذا رُوي هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي، وغيرهم.

وقيل: المراد بقولهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾، أي: هلا أنزل بعضها بالأعجمي، وبعضها بالعربي، هذا قول الحسن البصري، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ﴾ وهو رواية عن سعيد بن جبير وهو في التعنت والعناد أبلغ»(1).

هذا وإن تحدي القرآن الكريم لم يقتصر على تحدي العرب في الإتيان بمثله في البلاغة والفصاحة، بل التحدي يشمل كل البشر بأن يأتوا بكلام مثله لأنه كلام الله سبحانه وتعالى الذي لا يشبهه كلام البشر، فهو على طوله لا اختلاف فيه ولا تناقض، وهو صدق كله وعدل كله، قال ابن كثير: «من تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:1)، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ﴾ (الأنعام:115) أي: صدقًا في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد

(1) تفسير ابن كثير، 184/7.

في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه... وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن... وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء... وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال، وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت؛ ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم»[1].

فيدخل ضمن كلامه، رحمه الله، ما يمكن أن نسميه إعجازاً عقدياً وتشريعياً وأخلاقياً واجتماعياً واقتصادياً، وكذلك ما يعرف في هذا العصر بالإعجاز العلمي شريطة أن يكون منضبطاً بضوابط حددها أهل العلم،

(1) تفسير ابن كثير، 1/199-200.

فهذه التحديات قائمة لأهل هذا العصر وكل عصر، وغير العرب أولى بها من غيرهم لما حازوه من تقدم علمي دنيوي كبير.

وأخيراً، فإن الإعجاز اللغوي واحد من أنواع إعجاز القرآن، ولا يزال إعجازه التشريعي، والعلمي يأسر ألباب المنصفين من الغربيين الذي تقدموا في تلك الميادين أكثر من غيرهم.

4- واحتجوا كذلك على اختصاص الخطاب القرآني بالعرب دون غيرهم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ (الزخرف:44)، وما أشبهه مثل قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء:10).

الجواب: ليس في هذه الآيات دليل على مرادهم، إذ أقصى ما فيها أن الله سبحانه وتعالى قد اختص العرب بشيء من الفضل عمن سواهم من أمة الدعوة، وليس فيه أنهم مختصون بالدعوة دون غيرهم، بدليل ما قدمنا من الآيات الدالة على عالمية دعوة الإسلام، قال ابن كثير، رحمه الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾ قيل: معناه لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه... وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾، أي: لتذكير لك ولقومك. وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم»[1].

(1) تفسير ابن كثير، 229/7.

5- واحتجوا كذلك بأن حجته لا تقوم إلا على من يؤمن به، لأن من لا يؤمن به لا يلزمه أن يصدق بما فيه ويقر به، فكيف يكون حجة عليه؟ فبهذا يثبت أن خطابه ليس عالمياً وإنما ينحصر في المؤمنين.

الجواب: قد تخدع هذه الحجة كثيراً من أهل الإيمان رغم أنها حجة ساقطة، ذلك أن من آيات القرآن الكريم ما يخاطب العقل مطلقاً بغض النظر عن دين صاحبه، فهذه لا يسع أحداً أن يقول إنها خاصة بالمؤمنين، وقد حاجج القرآن الكريم من يكفر به من المشركين وأهل الكتاب بأدلة عقلية قاطعة باهرة، وقال لكل من الفريقين: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:111) و(النمل:64)، فلم يستطيعوا أن يصمدوا في ميدان الحجاج، أو أن يأتوا ببراهين حقيقية، ولم يجدوا سبيلاً للرد سوى الاستهزاء والتكذيب والاستكبار والعناد.

وهناك آيات أخرى حوت حقائق كانت غائبة عن أذهان الناس أو أسماعهم وأبصارهم ثم أظهرها الله لهم فيما بعد، فهذه لا يملك المنصف من كل دين إلا أن يذعن لها ولصدقها، فليست خاصة بالمؤمنين بإطلاق.

وهناك آيات أخرى كثيرة حوت من بدائع الحكم والأخلاق والتشريعات في كل المجالات ما يظهر للبشر بمرور الزمن أنها تقدم الحلول المثلى لما يواجههم من مشكلات ومصاعب وأنها ترسم لهم طريقاً واضحة لجلب كل ما يصلح شأنهم ودرء ما يفسده، فهذه أيضاً عالمية في خطابها.

على أن أصل الشبهة باطل، فحجة القرآن قائمة على من آمن به وعلى من كفر به، فالكافر محجوج بالقرآن، مكلف بأحكامه على الصحيح وإن لم تقبل منه قبل إيمانه.

ب- تحريف عالمية القرآن الكريم:

يقوم هذا النوع على الإقرار باللفظ وتحريف المعنى، فتجد المحرف المبدل يقر بلسانه بعالَمية القرآن الكريم، ويزعم بلفظه أنه يصلح لكل زمان ومكان، لكنه إقرار زائف، لأنه يفرغ العبارة من معناها الصحيح، الذي هو أن تعاليم القرآن الكريم بقواعده العامة والكلية وأحكامه التفصيلية التي أرادها الله سبحانه وتعالى ليست مختصة بزمان دون غيره ولا بمكان دون غيره، بل هي صالحة للتطبيق كما أراد الله في كل آن ومكان، وأن في تطبيقها صلاح للزمان والمكان؛ فهذا هو المعنى الصحيح، لكن المحرف المبدل لا يريد بل يريد أن معاني القرآن تحرف، ونصوصه تلوى أعناقها، بحيث تناسب واقعاً خاصاً أو عاماً، فتنسجم معه ولا تنكره، فيلغي قواعد النظر وأصول الاستدلال ومدلول الخطاب العربي، بدعوى أن لكل زمان ومكان مفاهيم وقيماً وظروفاً ومصالح تختلف عن غيرها، فينبغي أن يفسر القرآن الكريم تفسيرات مختلفة وتستمد منه أحكام مختلفة بما يوافق كل بيئة أو مكان وزمان، وبما يحقق مصالحهما التي تختلف عن مصالح غيرهما، إذ حيث توجد المصلحة فثم شرع الله! فإن اختلفت المصالح في الوقت الواحد، فالواجب اختلاف التفسيرات، والقول بها جميعاً وإن تعارضت!

ومن تأمل هذه الدعوة علم أن ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب، ذلك أنها تقضي على ميزة عظيمة من مميزات هذا الدين الحنيف وهي ثبات أحكامه وتشريعاته، فتجعلها عرضة للتبدل والاختلاف والتعارض مع نسبة

كل ذلك للشرع المطهر ولكلام الله سبحانه وتعالى، وهو ما يفتح الباب للطاعنين فيه على مصراعيه ليعارضوا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:82).

وقولهم حيث وجدت المصلحة فثم شرع الله كلمة حق أريد بها باطل، فمن قال هذه العبارة من العلماء لم يرد بالمصلحة ما يتخيله هؤلاء مما تزينه لهم أهواؤهم وأنفسهم الأمارة بالسوء، بل المراد بالمصلحة هنا المصلحة المعتبرة شرعاً والتي دل النص عليها، ولا يجوز ليّ النصوص لتوافق ما تراه الأهواءُ مصالح، فلا يجوز مثلاً تعطيل حكم الربا بحجة أن المتعامِلَين بالربا يرى كل منهما في هذا التعامل مصلحة، فيصرف دلالة الآيات عن مدلولاتها التي تقتضيها الأصول واللغة والقواعد، ليحملها على معنى خصصه بهواه وعقله القاصر، وكذلك يقال في تحريم الخمر فلا تلوى أعناق النصوص بحجة أن في بيعها والاتجار بها مصالح اقتصادية مثلاً ومنافع أخرى، ويحمل التحريم على معنى يختاره المحرف المبدل للشرع!

وبالجملة، فكل مصلحة دلت النصوص على إهدارها وفقاً لقواعد النظر والاستدلال فلا عبرة بها، ولا يجوز تحريف الكلم من بعد مواضعه لتعتبر.

وهذه الدعوة إلى تفريغ عالمية القرآن من محتواها بتبديل دلالته لينسجم مع أهواء الناس وآرائهم تولى كبرها بعض من يتسربل بالإسلام من العلمانيين ومن يسمون ظلماً وعدواناً بالتنويريين، وبرغم خطورتها وضررها إلا أن ما هو أشد خطورة منها هي الدعوة التي يطلقها بعض الليبراليين

بإطلاق الدعوة الأولى من كل عقال بحيث يكون لكل إنسان ملم بالعربية قراءته الخاصة وفهمه الخاص للقرآن الكريم برغم الاشتراك مع غيره في نفس البيئة والمكان والزمان، وتصحيح هذه القراءات جميعاً، وهذا ما يعني أنه سيكون هناك مئات الملايين من «الإسلامات» إن جاز التعبير، فيكون لكل إنسان إسلامه الخاص وأحكامه الخاصة به، انطلاقاً من نسبية المفاهيم والمعايير التي ينطلقون منها! ومؤدى هذا القول والذي قبله كذلك تصحيح المتناقضات، والجمع بين الشيء وضده، فإسلام الجندي الذي يقاتل في صفوف دولة كافرة قد تفسر نصوصه عند هؤلاء بما يسوغ له قتال مسلمين معتدى عليهم لصالح مصلحة بلده! فيصحح صنيعه كما يصحح صنيع من يقاوم العدوان!

وهنا يحق للمرء أن يتساءل: كيف يكون القرآن الكريم والحال كذلك: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:9)؟ وما الفائدة من إرسال الرسول وإنزال الكتاب إن كان الحق يتعدد بهذه الطريقة المريعة بحيث تصوب كل الأقوال على ما فيها من تضاد وتنافر؟ وهل يعقل أن يرسل الله عز وجل رسوله، عليه الصلاة والسلام، بهذا الكتاب العزيز ولا يطلب من الخلق أن يصلوا إلى مراده منه، بل كل منهم يبحث فيه عن مراده هو وما يناسبه دون غيره!

إن من ثمرات هذه الدعوة الخبيثة أن تصحح كل التفسيرات الباطنية للقرآن والتي عد أهل العلم كثيراً منها على مر الزمان من الزندقة التي تخرج صاحبها عن الملة، ومن ثمراتها الخبيثة أيضاً ألا يحل الناس الحلال ولا يحرمون الحرام، وأن تبدل أحكام المواريث والنكاح والطلاق، ومن

ثمراتها أن تلغى الحدود تماماً مواكبة للعصر ومفاهيمه وقيمه، ومن ثمراتها أن يحسن الناس ويقبحوا بعقولهم المطلقة دون الرجوع لشرع يضبط المفاهيم والقيم، فلا يعرف الناس معروفاً ولا ينكرون منكراً.

إن العقلاء لا يشكون أن هذه الدعوة امتداد حقيقي لدعوة الفوضى - غير- الخلاقة التي أرادها أعداؤنا في بلادنا بالتدخل العسكري المباشر، بيد أن هذه الدعوة أشد وأخطر وأفتك لأنها تعمل على الهدم من الداخل، تماماً كما كانت حال المنافقين على مر العصور، ولهذا اشتد تحذير القرآن الكريم منهم ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون:4)، ولهذا كان عقابهم عظيماً قدر عظم الذنب وخطورته: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء:145).

فهذه الدعوة المتسربلة برداء الإسلام دعوة ماكرة خبيثة للقضاء عليه من الداخل، وخلاصتها تحريف القرآن وتبديل معانيه بدعوى تفسيره مع ما يتلاءم مع الواقع المعين، وفرقٌ بين التفسير والتحريف، ولكن المبطلين يسمون الأمور بغير أسمائها لتروج على العوام، أما العالمون فيميزون بين التفسير الصحيح الذي يجيء وفق القواعد وبين التحريف والتغيير والتبديل، ويعلمون أن الله عز وجل حافظ دينه وكتابه، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (الأنفال:30)، فمهما سعى أعداء الله لإطفاء نوره فإن سعيهم في تباب ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(التوبة:32- 33).

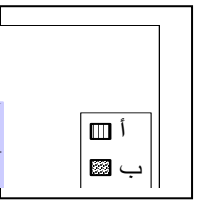

وهذه البشارة الإلهية هي خير ما نختم به هذا البحث، فإن ظهور هذا الدين على ما سواه من الأديان، سواء ما كان منها سماوياً في أصله ودخلته يد التحريف، أو ما كان أرضياً من وضع البشر، من أعظم الأدلة على عالمية الخطاب القرآني، وأن أحداً مهما أوتي من دهاء ومكر، ومهما استخدم من وسائل ظلم وفتك لن يستطيع أن يوقف انتشاره وظهوره، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.